محاضرة رقم 4

جون أوستين (1911-1960)

تُعد التداولية من أبرز التيارات الفكرية التي برزت في الساحة الثقافية المعاصرة، حيث شكلت اهتمام الكثير من الدارسين في مختلف التخصصات المعرفية على ضوء أنها تعمل على توسيع مجالات اشتغالها في ميادين علم الاجتماع وعلم النفس والاتصال واللسانيات وغيرها، هذا الذي جعل التداولية تلج مجال الدراسات اللسانية، التي يمثل فيها "جون أوستين" وجهاً بارزاً فيها، فما طبيعة التصور الذي قدمه حول الجوانب اللسانية ونظرية أفعال الكلام ؟

لم يكن "أوستين" بعيدا عن المسار التاريخي للفلسفة في تطور اشكالاتها، بل كانت نقطة انطلاقه أثناء احتضانه كتابات "أرسطو" والتي أثيرت في منهجه كثيراً، خصوصاً ما تعلق بموضوع المسائل المنطقية، هذه الانشغالات الفلسفية السائدة في عصره، جعلت اسهاماته تتجلى في مجريات الفلسفة المعاصرة؛ وهذه الاسهامات برزت في نقطتين رئيسيتين: أولاً الظاهرة اللغوية، التي تُعد منهجاً فريداً في عملية التحليل الفلسفي لمفاهيم وأساليب التعبير المستخدمة في اللغة اليومية، وثانياً، نظرية أفعال الكلام ؛ التي تنص على أن استخدام اللغة يحمل بعداً أدائياً، وكان لنظرية أفعال الكلام آثار وأهمية في مجالات بحثية متنوعةكفلسفة اللغة، والأخلاق والفلسفة السياسية، وفلسفة القانون واللغويات، بحثا عن أبعادها التداولية.

وترد "التداولية"في هذا السياق ليس حسب اصطلاحها اللساني pragmatisme، بل "تتجسد في مفهمتها الفلسفية، إذ أن الناس لا يتداولون اللغة لذاتها، بل كوسيلة لتبادل دلالات الأشياء، إنها تجسيد لعملية الفهم في التفاهم. ولقد وضع"هابرماس" كتابه الرئيسي: نظرية الفعل التواصلي، كيما ينقل سؤال الفلسفة المركزي عما يعنيه الذات، إلى ما يعنيه وجود الانسان في العالم عبر تواصله مع ذاته والآخر.

وقد بيّن "أوستين" أن مجال الفلسفة يمثل فضاء خصب على ضوء أن الفلسفة ليست مسعى فرديا بل عمل جماعي، لذلك ينبغي أن تكون نقطة الانطلاق في الفلسفة موجهة إلى تحليل المفاهيم واستكشاف طرق التعبير في اللغة اليومية، والتغلغل في ثنايا لغتنا العادية، مما سيعين هذا الأمر لا محالة في معرفة استراتيجية تفكيك الأخطاء الفلسفية الناجمة عن الطريقة التي يستخدم بها الفلاسفة بعض الكلمات العادية من ناحية، ومن ناحية أخرى، تمكننا من الوصول إلى السمات العقلية في العالم التي تحددها التعبيرات التي نستخدمها لوصفه.

لقد كان المسعى الذي يصبو إليه "أوستين" يتمثل في إعادة تنظيم اللغة الطبيعة على ضوء الدراسات اللسانية المعاصرة، والتمكين من بناء المناخ الفكري الذي أسهم في تجديد فلسفة اللغة، والعمل على إحداث ثورة تخص عملية تجديد الفكر الفلسفي واللساني بوجه عام، فكانت النزعة الوضعية المنطقية في "انجلترا"خاصة، تدّعي أن الفلسفة يجب أن يقتصر موضوعها ووظيفتها على تحليل اللغة العلمية، لكن "أوستين" لم يفكر في هذا الاتجاه والدخول في هذا الخلاف، بل فضل متابعة التفكير اللساني، وبخاصة مع علماء لسانيين وأنتربولوجيين، أمثال "سابير" و"ورف" وانتهى إلى فكرة، أن بنية اللغة وبنية الفكر أمر واحد.

إذا كان فلاسفة التحليل اللغوي أمثال، "راسل" و "فريجة" يسعون إلى بناء لغة مثالية للتواصل الفلسفي والعلمي، والاعتماد على اللغة الاصطناعية، حيث تخلو هذه الأخيرة من الغموض الذي يميز اللغات الطبيعية، فإن "أوستين" ينظر إلى اللغة الطبيعية ككيان مستقل للتحليل، إذ تعد أكثر ثراء على التعبير الذي يسود مختلف أنشطتنا المعمول بها في المؤسسات الاجتماعية، لذلك يصعب التحقق منها بشكل كامل، ومنه يمكن التسليم بمبدأ أن المصطلحات المستخدمة في الحياة اليومية تظهر فيها المرونة، وهذا ما تفيده نظرية "سيرل" و"أوستين"حول الأفعال اللغوية في تبيان كيف أن كل عبارة يتلفظها المتكلم لابد أن تحمل دلالة للمستمع. هذه العملية تحدث ثمة تغييرا في التواصل، يمكن اعتباره بمثابة الفعل اللغوي.

وفي هذا السياق، أخذ "أوستين" في الإعتبار أهداف وغايات المتحدث والنوايا التي يحملها، وهذا حسب الظروف المحددة للنطق، وبالتالي أصبحت اللغة ليست أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب، وإنما اللغة هي في واقع الأمر، وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الانساني من خلال مواقف كلية، وهذا ما يجعل اللغة تفضي بنا إلى تحليلها ومعرفة صلتها بالادراك الحسي الذي سيؤدي إلى فهم التفكير المتطور من خلال إدراك المعاني والدلالات اللغوية، وهذه المهمة هي الغاية التي تعمل التداولية على تجسيد مبادئها في الحرص على تشخيص التفاعل القائم بين المتكلم والمستمع والمتلقي، لأن كل عملية تداولية تحكمها مجموعة من الظروف والأليات والعوامل المحيطة بها .

في حين تمثل النظرية التداولية مجالاً خصباً في تموقع اللسانيات المعاصرة وموضوعاً مألوفاً في تحليل الظاهرة الكلامية، لهذا أصبحت من أحدث فروع العلوم اللغوية التي تعنى بتحليل العمليات الكلامية، والوقوف عند معرفة وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها في تجسيد إجراءات التواصل بشكل عام، وتشخيص محتواها عند دراسة فعل الكلام، ومعالجة المنجز اللغوي على ضوء معرفة الشروط الضرورية واللازمة كي تكون الأقوال اللغوية مقبولة ومفيدة في تحقيق البعد التواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم.

إن سمة الاجرائية للتداولية وتحليل الخطاب، تدخل في مجال نظرية أفعال الكلام التي تتجه إلى التأكيد، أن كل ملفوظ يحمل ويخفي بعداً كلامياً، تكون فيه اللغة مجاوزة لوظيفة الاتصال إلى وظيفة التأثير على أساس أن كل ملفوظ يُعد عملاً ، هذا الملفوظ يقوم على نظام شكلي له دلالته الانجازية والتأثيرية ويوصف بالمادية في كونه أداء أو انجازاً، والأفعال قد تكون تقريرية أو اخبارية، وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وقد تكون صادقة أو كاذبة في نقل المعلومات إلى المتلقي والاخبار عن ذلك.

من خلال هذا تبيّن أن "أوستين كان له حرص كبير، الذهاب بالنظرية التداولية إلى أبعد حدودها مستحضرا قوة الأفعال الانجازية من الكلام في تأثيراته المختلفة، سواء كان في الأمور الدلالية والتواصلية والعمليات التلفظية في خضم الأداء على أساس أن نظرية أفعال الكلام، تريد ترسيخ مسالك تحليل اللغة في صورتها الدلالية التي تأتي في سياق التناول الذي يعنى بقول المتكلم في نشاطه الذي يمثل عمل حقيقي واجرائي غير بعيد عن المقاصد التي يسعى إلى تحقيقها أثناء التلفظ بالأقوال، هذا ما يفضي إلى الاعتراف بأن الكلام سيتحول إلى فعل انجازي، أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات .

هذا الانجاز يحمل في هويته الفعل التأثيري، أي يترك آثاراً في الواقع، خصوصا إذا كلل بالنجاح في النهاية، وهذا ما يجعله فعلاً مميزاً يعين على معرفة معاني الجمل وما قد يعنيه المتكلم أثناء نطق الكلمات، لأن الفعل الانجازي يحتل مكانة محورية في نظرية الأفعال الكلامية التي خصها "أوستين" في طموحه الفلسفي المتمثل في صياغة نظرية متكاملة الأطراف، على الرغم من اجتهاده في وضع مفاهيم مركزية لها، هذا الذي دفع ب"جون سيرل" توسيع مجال هذا الاشتغال التداولي.

المصادر والمراجع:

أوستين ، نظرية أفعال الكلام، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، 1991

مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، دار الطليعة، بيروت لبنا 2005

صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، سورية، ط1، 2008

طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2، بيروت لبنان.

نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتهاوقضاياها الراهنة، عالم الكتب الأردن، ط1، 2009

عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفى ج3،منشورات ذوي القربى، ط2، 2007

John Searle, Les actes du langage, trad, Pauchard, 1972

Habermas, Théorie de l’agir communicationnel, ed, fayad1987